

تمفصلات الرواية البوليفونية في ظل اللسانيات الاجتماعية؛ نماذج من الرواية الجزائرية
The intricacies of Bolivian narrative in the context of social linguistics
(Examples from Algerian literature)

* سواد بن معمر

Souad Benmeamer

جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان (الجزائر)

University Abou Bekr Belkaid Tlemcen (Algeria)

souad.benmamar@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/10/15

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

تقيم اللسانيات في دراستها مع العلوم الأخرى ارتباطا يندرج ضمن ما يسمى بالدراسات البينية خاصة علم الاجتماع، ومنه كانت اللسانيات الاجتماعية، هذه العلاقة التي أوجدت علاقة جديدة في قراءة جنس الرواية، والتي كشف سياقها ميخائيل باختين تحت ما يدعى بالرواية البوليفونية. ومن هذا المنطلق جاء بحثنا المعنون ب(تمفصلات الرواية البوليفونية في ظل اللسانيات الاجتماعية-نماذج من الرواية الجزائرية) ضمن هذا النوع من الدراسات للوقوف على الأسس التي انبثت عليها الرواية البوليفونية وهي تخضع لتطبيقات اللسانيات الاجتماعية متخذة من بعض النماذج الجزائرية حقلًا لها.

الكلمات المفتاحية: الرواية، البوليفونية، الحوارية، اللسانيات الاجتماعية.

Abstract :

When studied in relation to other disciplines, Linguistics forms a relational bond that falls into what is known as interdisciplinary studies, mainly sociology. Thus came the discipline of sociolinguistics. The latter brought along a new set of relations in studying the novel as a literary genre the context of which was revealed by Mikhail Bakhtine in what he termed as the polyphonic novel. From this standpoint, our research, entitled "The intricacies of Bolivian narrative

* بن معمر سواد: souad.benmamar@gmail.com

in the context of social linguistics (Examples from Algerian literature) comes as an attempt to delve into the depth of the polyphonic novel for the purpose of examining and studying the basis on which the latter stands while falling under the practices of sociolinguistics. Noteworthy, Algerian novels are set as model for this research.

Keywords: novel, polyphony, dialogism, sociolinguistics.



مقدمة

تطرح الظاهرة اللغوية حقلا خصبا للدراسة والبحث منذ القديم وصولا إلى العصر الحديث، كونها الأداة الرئيسية للتواصل الإنساني بشتى صوره، سعيا إلى بسط تجليات تفكيره، من هذه الزاوية كان دأب الوعي الإنساني الكشف عن أسرار اللغة، حينها غدا البحث اللغوي بمدارسه ونظرياته يتوالى حتى أضغى علما قائما بذاته وُسم: "علم اللغة أو اللسانيات".

هذا العلم الذي أسس لنفسه اتجاهات نظرية حديثة ومعاصرة تستند على عدة لغوية ينتجها النص، والتي لا يمكن فك شفراتها إلا وهو متصل بالعلوم الأخرى من منظور تفكير بيني، تفكير يعكس ظلاله مرتبطا بالسياق الخارجي تارة، وبالنسق الداخلي تارة أخرى، على غرار البنيوية والشكلانية، وما بُني على انتقاداتها من مقاربات جديدة.

والحق نقول إن هذه العلاقة التي تقيّمها اللسانيات مع العلوم الأخرى هي علاقة في غاية الواجهة، إذ لا تستقيم الدراسات إلا بعقدها، الأمر الذي ينفي استقلاليتها وعزلتها، نحو علاقتها بعلم اللغة الاجتماعي المتمر للسانيات الاجتماعية.

هذا الارتباط البيني الذي ما فتى أن يشبّ حتى خلق مقاربة جديدة في قراءة الأجناس الأدبية لا سيما جنس الرواية، هذه القراءة التي تتأسس على الحوارية الناتجة عن تعدد الأصوات بها، حيث يكشف سياقها ميخائيل باختين وهو يجري تطبيقاته على روايات دوستوفسكي، تحت ما يدعى بالرواية البوليفونية، في كتابه "شعرية دوستوفسكي".

والطرح البوليفوني لجنس الرواية يفترض مقاربة اجتماعية للمفوضها اللساني تقوم به اللسانيات الاجتماعية، ولعلّ العلاقة البينية بين هذين الحقلين خلق لنا سبيلا نسعى فيه إلى بلاء أخبار هذا الارتباط

من الإجابة على هذه الإشكاليات: إلى أي مدى ارتبطت اللسانيات بعلم اللغة الاجتماعي؟ وما الداعي إلى هذه العلاقة؟

وما الأسس التي انبثت عليها الرواية البوليفونية حتى خلقت حقلا تطبيقيا للسانيات الاجتماعية تبسط إجراءاتها عليها مستنطقا طرحها الروائي المستمر للعلاقة الجدلية بين اللغة والمجتمع رغم طبيعة الدراسة النسقية للمفوضاتها اللسانية؟

إشكاليات سنحاول الإجابة عنها في العناصر الآتية:

*مقدمة

1. اللسانيات الاجتماعية (اللسانة-اللسانة الاجتماعية واجتماعيات اللغة)

2. الرواية البوليفونية

3. البوليفونية اللسانية الاجتماعية (نماذج من الرواية الجزائرية)

*خاتمة تلخص أهم النتائج المتوصل إليها

اللسانيات الاجتماعية (اللسانة-اللسانة الاجتماعية واجتماعيات اللغة):

بعدما تجاوز اهتمام اللسانيين الحدود الضيقة للدرس اللغوي انكبوا على العلاقات بين المنظومات والاستعمالات اللسانية والوقائع الاجتماعية، ونظروا إلى اللغة كظاهرة اجتماعية ومكونا من مكونات الثقافة، حينها حظي هذا النوع من الدراسات بنوع من الاستقلالية، فاصطلح عليه "علم اللغة الاجتماعي أو اللسانيات الاجتماعية"¹

وهذا التعدد اللغوي خلق ويخلق تداخلا معرفيا، إذ ورد في معجم مفاتيح العلوم الإنسانية عن الدكتور خليل أحمد خليل قوله: "لسانة ناسية أو ناسية لسانية (Ethnolinguistique) واللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistique)"

في حين يشير بعض الدارسين إلى أن هذا التفريق الكافي قد يبدو في نظر بعضهم عاجزا عن الثبات والتطبيق، ففي نظر "رومان جاكوبسون": "اجتماعية اللغة هي جزء لا يتجزأ من اللسانة وفي نظر جوشوا فيشمان ومعاونوه اجتماعيات اللغة واللسانة الاجتماعية هما بوجه عام علان مترادفان على الرغم من أن فيشمان يحدد أحيانا اجتماعيات اللغة بوصفها لسانة اجتماعية مندرجة في أفاق علم الاجتماع"².

ولعل طبيعة اللغة الإبلاغية التواصلية هي التي ألزمت كل فرد منا أن يسر وفق النظام اللغوي الذي تلقاه في مجتمعه إما احتكاكا وإما تقليدا، وأمام هذا الطرح المتنوع تعددت مشارب دراستها وهي تتصل بالثقافة والمجتمع، ذلك أنها: "حقل واسع عريض إلى أبعد الحدود، الأمر الذي يبغي أحقية علم واحد للقيام بهذه المسؤولية، فظهرت هذه العلوم تحت مسميات عديدة أثارت نوعا من التشابك والتداخل"³.

ويرجع بعض الدارسين قضية التعدد والتطور الحاصل في المصطلحات التي يثير الغموض والاضطراب في تحديد الدلالات بدقة إلى ارتباط ذلك بنزعة هامة هي نزعة التكامل المعرفي واللغوي والانساع الموضوعي المنهجي".⁴

ويشير عبده الراجحي إلى أن اتصال البحث اللغوي بعلوم المجتمع يعود إلى القرن التاسع عشر، وأن علم اللغة الاجتماعي ليس قسما لعلم اللغة وعلم الاجتماع وليس مزيجا منها، وليست تخصصا في ذاته، وليس من التقاليد العلمية حتى الآن أن يوصف باحث ما بأنه عالم لغة اجتماعي، وإنما يوصف البحث نفسه بأنه في علم اللغة الاجتماعي".⁵

وقد نبه دي سوسير إلى هذه العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع قائلا: "إن موضوع علم اللغة الوحيد والحقيقي هو اللغة التي ينظر إليها كواقع قائم بذاته ويبحث فيها لذاتها" (دي سوسير، صفحة 24). ثم يضيف مؤكدا على أنها ظاهرة اجتماعية قائلا: "هي العلاقة التي بها يعرف أعضاء الجماعة والنسب الذي إليه ينسبون".⁶

والدراسات التي سبقتها عند العرب على غرار الجاحظ القائل: "وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم طبقات، فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقيح والخفيف والثقيل وكله عربي وكل تكلموا، وكل قد تمادحوا وتعايبوا"⁷، التي تقر بأن هذه العلاقة ليست من اهتمام الدرس اللساني الحديث فحسب؛ إذ تجعل كلها مجتمعة اللغة في ضوء اللسانيات أو علم اللغة حلقة وصل بين مختلف المعارف الإنسانية، لاسيما الاجتماعية منها، الأمر الذي ينفي الشك نحو نمو هذه العلاقة وإلحاحيتها أو إلزاميتها تحت علم هو علم اللغة الاجتماعي، العلم الذي يؤمن بفكرة اللسانيات الاجتماعية.

وأيا ما يكن الشأن فإن الدرس اللساني قديمه وحديثه خاصة يؤكد ارتباط مصطلح اللسانيات الاجتماعية بمصطلح علم اللغة الاجتماعي رغم التعارض والتنازع الحاصل بين المسميات، إلا أن اللغة هي المحور الأساس بينهما، فيتشكل حينها ذلك التفاعل المعرفي ذي الطبيعة الاجتماعية بكل أبعادها. من هذه الزاوية كان مجال عمل اللسانيات الاجتماعية واسعا وكبيرا بمختلف أبعاده الثقافية والاجتماعية، وحتى الاقتصادية والسياسية، منتجا مادة قابلة للتطبيق، متنوла بمعناه "الواسع ميادين أخرى كتحليل الخطاب السياسي والديني مع الاعتماد على سوسيولوجيا ظاهرة الكلام التي لا تتعرض للمعطيات اللسانية إلا بوصفها وسيلة الاتصال بالمجتمع".⁸

وفي معرض الحديث عن اهتمامات اللسانيات الاجتماعية يصادفنا التصنيف الذي وضعه هاليداي (1925) لعلم اللغة الاجتماعي الذي يتناول الازدواجية اللغوية والتعدد اللغوي وتعدد اللهجات والتخطيط، والتنمية اللغوية وظواهر التنوع اللغوي، وعلم اللهجات الاجتماعي واللسانيات الاجتماعية، والتربية، والدراسة

الوصفية للأوضاع اللغوية، والسجلات والفهارس الكلامية، والانتقال من لغة إلى أخرى، والعوامل الاجتماعية في التعبير الصوتي والنحوي واللسان والمجتمع والتواصل الحضاري والنظرية الوظيفية والنظام اللغوي، وتطور اللغة عند الطفل، واللسانيات العرفية، ودراسة النصوص"⁹.

هذه الخاصية في التصنيف لاهتمامات علم اللغة الاجتماعي أبحاث لللسانيات الاجتماعية مكانا تتقصى فيه النشاط اللغوي من حيث ملامحه الثقافية وعلاقته بالمجتمع من جهة، والكشف عن العادات والتقاليد والتطور الحضاري الذي يحمله النشاط اللغوي أو اللغة في حد ذاتها مستجلية طبيعة التفاعل الحاصل بين الجماعات وكذا قابلية رقيه من جهة أخرى.

وعند الحديث عن الخطوة الحاسمة لنشأة اللسانيات الاجتماعية نجد أنها متجسدة في أبحاث الأمريكي "ويليام لابوف (William labov) 1929"، الذي بدأ حياته العلمية بالبنوية، ثم تدرج باتجاه النحو التوليدي، وضع أثناء ذلك إجراءات وقواعد الدراسة الميدانية في تحليل المتغيرات الصوتية والمتغيرات الاجتماعية، وقد لابوف دراسته في حيز جغرافي محدد وهو جزر مارتينيك، حيث وضح من خلالها أثر العوامل اللسانية على الوقائع اللسانية في دراسة ميدانية أخرى تناول فيها نطق حرف الراء (R) عند سكان مدينة نيويورك، ودراسة تناول فيها الملفوظ عند السود الأمريكيين"¹⁰.

والواقع أنه لا تعارض ولا خلاف بين ما ذهب إليه ويليام لابوف وما ذهب إليه هاليداى في تصنيفه، فكلاهما وقف عند التغيرات الطارئة على النشاط اللغوي وعلاقته بالمجتمع إن على المستوى الصوتي أو الصرفي أو النحوي، الأمر الذي يؤكد على وظيفة اللغة الاجتماعية التي أقر بها دي سوسير من قبل، إلى جانب وظيفتها الفكرية التي تجعل منها وسيلة للتواصل والتفاهم وأساس كل نشاط ثقافي. واعتمادا على هذا الطرح فإن "فيشمان" يضم اللسانيات الاجتماعية إلى فروع علم اللغة التطبيقي لنقطتين أساسيتين هما"¹¹.

عندما يتوجب تطوير لهجات معينة بهدف جعلها عاملة في وسط محيطات جديدة.

2. عندما يتوجب تدريس العدد الكبير من الجماعات البشرية لغات لا يعرفونها لكي يكون بمقدورهم

التعامل بها مع محيطهم الجديد.

ونحن لا نعجب لهذا الطرح لأننا أدركنا وظيفة اللغة الاجتماعية والفكرية، ومنه جاءت اللسانيات الاجتماعية حقا خصباً يثبت هذه الحقائق حتى وإن خلق الأمر وضعا يصعب المحافظة فيه على التراث اللغوي خاصة في ظل التعدد اللغوي واللهجي، ولكن الأمر طبيعي، المهم تعزيز اللغة وهي ترتبط بالعلاقات الاجتماعية والثقافية.

2. الرواية البوليفونية:

بدأت ملامح عن الطرائق والأسس المنهجية التي بلورها مفكروا القرن التاسع عشر في إيجاد أطروحات فاعلة لفهم روح النص مستندا على عدته اللغوية كنسق قائم بذاته متحرر من مرجعه الخارجي، وقد جسد هذا المبدأ الشكلايون الروس بمنهجهم، ثم البنيويون من بعدهم، هذا المنهج الذي أثر النظر إلى النص الأدبي على أنه انعكاس لبنية اقتصادية واجتماعية وسياسية وغيرها، لتفتح بعدها حرية القراءة والفهم والتأويل للقارئ.

من هذه الزاوية ظهرت مقاربة جديدة تزعمها الشكلايني الروسي "ميخائيل باختين" تجعل من ثنائية الشكل والمضمون لجنس الرواية حوارية مفتوحة تتغذى روحها من تعدد الأصوات بكل تجلياته، اختارت لنفسها مصطلح البوليفونية.

مفهوم البوليفونية (Polyphonique) والرواية البوليفونية:

انتقل مصطلح البوليفونية (تعدد الأصوات) من عالم الموسيقى بفتية نسقه وجماليته إلى مجال الأدب والنقد واللسانيات، وهو في الحقيقة يحيل إلى المزج بين مختلف الألحان في عمل موسيقي (counterpoint) وهو بصدد علاقات حوارية، الأمر الذي تنبه إليه دوستوفسكي كونه يملك قدرة على سماع العلاقات الحوارية في كل مكان وفي جميع ظواهر الحياة الإنسانية¹².

ولم تظهر الرواية البوليفونية متعددة الأصوات إلا مع دوستوفسكي حسب المنظر الروسي ميخائيل باختين، وهي "الرواية التي تعتمد على تعدد المواقف الفكرة واختلاف الرؤى الأيديولوجية، وتركز على كثرة الشخصيات والرواة والسرّاد، وتوظيف الكرونوتوب (وحدة الزمان والمكان) وتشغيل الفضاءات الشعبية الكرنفالية¹³.

وبتعريف أدق الرواية البوليفونية تلك الرواية التي تتعدد فيها الشخصيات المتطورة وتتعدد فيها وجهات النظر، وتختلف فيها الرؤى الأيديولوجية، بمعنى أنها رواية حوارية تعددية تنحو المنحى الديمقراطي، حيث تتحرر بشكل من الأشكال من سلطة الراوي المطلق وتتخلص أيضا من أحادية المنظور واللغة والأسلوب¹⁴.

ويتّرجم كل من التعريفين تعددية الأصوات المميزة للرواية البوليفونية بمظهرات وجهات النظر بشتى أفكارها وتباين المواقف الأيديولوجية التي تكشفها حوارية الشخصيات على تنوع انتماءاتهم الفكرية والثقافية ودرجة الوعي عندها وشكله.

ومكون الوعي الذي يخصه دوستوفسكي في الرواية البوليفونية للبطل الرئيسي من الشخصيات الروائية ليس مجرد موضوعات لكلمة الفنان، بل إن لهم كلماتهم الشخصية ذات القيمة الدلالية الكاملة، ولهذا

السبب فإن الطلمة التي ينطق بها البطل لا تستنفد هنا أبداً بواسطة الأوصاف الاعتيادية والوظائف ذات الدوافع العملية الحياتية"¹⁵.

والحقيقة أن فكرة الوعي لدى الشخصية بالضرورة في نظر دوستوفسكي لا تعتبر في الوقت نفسه تعبيراً عن الموقف الأيديولوجي الخاص بالمؤلف، ولعله يرسخ القضية النقدية المثلثة في موت المؤلف الذي نادت بها الشكلائية.

من هذه الزاوية أتيح للقارئ الناقد والضماني الحرية في اختيار الموقف المناسب بعيداً كل البعد عن البعد الأيديولوجي الذي ارتضاه المؤلف في ظل الرواية المتعددة الأصوات، وكأني بتعددية الأصوات تخلق تعددية القراءات التي تتوالد متداعية متنامية فكراً.

من أجل ذلك كشفت الرواية المتعددة الأصوات عن العمق الإنساني الذي يستجلبه الصراع الفكري القائم على مسرحها، والذي لا ينتهي بتعددية الأصوات الواردة فيها، ولا يتحدد إلا بوعي القارئ الضمني في بناء تأويلات وتصورات جديدة أو تقديم قراءات متعددة لها "من باب تعدد الشخصيات المتحورة، وتعدد وجهات نظرهم واختلاف رؤاهم الأيديولوجية لرواية تنحو منحى الديمقراطية، وتتححر بأي شكل من الأشكال من سلطة الراوي المطلق، وتتخلص أيضاً من أحادية المنظور واللغة والأسلوب" (جميل حمداوي، الرواية البوليفونية أو الرواية متعددة الأصوات).

وتباین الرواية البوليفونية عن الرواية المونولوجية ذات الصوت الواحد، يشير إلى ذلك ميخائيل باختين وهو يتحدث عن الحوارية في الرواية المتعددة الأصوات ممثلاً لها بأعمال تولستوي ثم دوستوفسكي قائلاً: "إن الخطاب في عمل تولستوي يتسم بحوارية داخلية شفافة، إذ يدرك تولستوي بجدّة ونفاذ في الشيء كذلك في أفق القارئ، الحوارية التي تتميز بخصائصها الدلالية والتعبيرية"¹⁶.

مؤكداً بهذا أن أعمال هذا الروائي خلقت ملمحاً مشابهاً لأعمال دوستوفسكي الذي يعد "خالق الرواية المتعددة الأصوات، لقد أوجد صنفاً روائياً جديداً بصورة جوهرية"، ثم يردف ذلك قائلاً: "إن بعد دوستوفسكي دخلت التعددية الصوتية بقوة عالم الأدب، إنه يجتاز في حواريته خصوصاً بالاستناد إلى الخبرة الذاتية لشخصياته عتبة من نوع خاص تحقق حواريته نوعاً خاصاً متميزاً وجديداً من أنواع الحوارية"¹⁷.

من هذه العتبة النقدية التي إرساها ميخائيل باختين للرواية متعددة الأصوات كان موقف جوليا كريستيفا غير معارض لتجليات أيديولوجية الأصوات في الرواية، إذ "النص متعدد الصوت (polyphonique) ليس له أيديولوجية خاصة لأنه ليس له موضوع أيديولوجي، إنه بمثابة جهاز تعرض فيه الإيديولوجيات نفسها وتستهلك ذاتها أثناء المواجهة"¹⁸.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا السياق والذي وقف عند ماهيته الكثير من الدارسين والباحثين هو: هل وجود الصراع الأيديولوجي الناتج عن تعددية الصوت في الرواية البوليفونية يحقق البوليفونية؟ يستمد هذا السؤال شرعية إجابته من الطرح الذي يضعه ميخائيل باختين في دراسته حول أعمال دوستويفسكي عندما تحدث عن الحوار الخالص مشيراً إلى (أن مهمة المؤلف تقتصر على خلق صراع إيديولوجي لكن ليست مهمته أن ينهي بطريقة سلمية، أو أن يغلب رأياً على آخر فهو مطالب بإفساح المجال أمام كل واحدة من وجهات النظر المتصارعة لأن تبلغ أقصى قوتها وإلى أقصى مداها ولتبلغ أقصى درجات الانقناع"¹⁹.

قد يتساءل القارئ عن طبيعة نهاية الحوار الذي يخلقه المؤلف، فأمر بديهي لا تخل رواية من وجود الحوار والجدال، ولكن المميز في الرواية البوليفونية هو ديمقراطية الحوار الذي يحكم في زمامه الشخصيات الروائية فيما بينها يفضي إلى تجليات وعميم الفكري متجاوزين بذلك أحادية الحوار.

3. البوليفونية اللسانية الاجتماعية (نماذج من الرواية الجزائرية):

ما يميز الرواية البوليفونية بلغتها التي تستند على مجموعة من الأساليب المشكلة ببعدها التعددي، أو ما يسمى بالصياغة الحوارية أو الدلالية الأمر الذي اضطر إلى صلتها باللسانيات الاجتماعية، يؤكد على ذلك ميخائيل باختين أن " ثمة لسانيات خاصة تتولى دراسة هذه الحوارية اللغوية هي اللسانيات الاجتماعية، ومن أهم الظواهر الفنية التي تبنى عليها الرواية البوليفونية الأسلبة تقليد الأساليب والمحاكاة الساخرة أو ما يسمى كذلك بالباروديا، والحوار، والتعجب، والتناسخ والتضيد، والعبارات المسكوكة، والأجناس المتخللة"²⁰.

ولاستجلاء هذه التمثلات انتقينا نموذجين من جنس الرواية الجزائرية، الأولى لعبد المالك مرتاض بعنوان (الخلاص) والثانية لسعيد خطيبي (حطب سرايفوا).

سبق وأن ذكرنا أن من مقومات الرواية البوليفونية التي تستند عليها في تحقيق التعددية الصوتية تجليات تعدد الشخصيات وتعدد اللغات والأساليب والايديولوجيات، كما تتفاعل مع الأجناس الأدبية الأخرى، وسنكتفي باستظهار بعضها من جنسي الرواية السابقين.

أ. التنضيد اللغوي في رواية الخلاص لعبد المالك مرتاض:

إن ما تبين عنه تعددية الأساليب التعبيرية في نص رواية الخلاص وجود طبقات منطبقات لسانية تشكل كل منها جنساً خطابياً معيناً، والمتلقي لا يجد كبير عناء في استجلاء ذلك، إذ تسفر عن ذلك تعدد شخصياته التي يمكن حصرها في أربعة أنواع من الطبقات، حيث يمثل النوع الأول شخصية الوعي بالآخر تجسده " شخصية يعقوب الباريسي" المحامي صاحب المرجعية الثقافية الأجنبية المقررة بتفوق الآخر الفرنسي في صراع تقدي ذاتي محتمل بينه وبين فتية المحروسة المحمية البيضاء، هؤلاء الذين يمثلون شخصيات الوعي بالأنا

الجزائرية الرافضة للآخر الفرنسية، والمتمسكة بالهوية الساعية لإثباتها وكذا تاريخها، هذا التاريخ الذي جسد النوع الثالث في شخصية الوعي بتاريخ في طي النسيان، قام بكشفه الشيخ الضرير، وتغدو الرواية على هذا النحو لثلمهم فجأة بنوع رابع مثل شخصية الوعي واليقظة بالتاريخ المجيد وثباته، لا لخنوع سبيل الخلاص ممثلا في الأم زينب.

والمفوض اللساني الآتي يفصح عن رؤية النوع الأول من التنضيد اللغوي، إذ نلني يعقوب الباريسي يقول: "ماذا أقول لكم يا أصدقاء؟ لقد كنت نسيا منسيا قبل أن أذهب إلى باريس فأعيش الحضارة العصرية في أرق مظاهرها وأزهى أحوالها، كنت أعيشها متلذذا بها مستمتعا فيها...بيد أن ريجين ابنة باريس وابنة موريس الجندي المقتول في معركة ديان بيان فو صديق أي هي التي شغفتني حبا محرقا وأنشأتني أيضا خلقا جديدا..."²¹.

وفي هذا التصريح صوت يكشف ذوقه الذي عاد إلى الحياة وهو يرتبط بهذه الفتاة الأجنبية، هذه الفتاة التي علمته فنون الحياة وأنواعها.

والحديث عن الآخر من وجهة نظره لم يكن انتصارا وإعجابا فحسب من حيث قوته وبأسه وتطوره العلمي، وإنما كان اتجاها عن خيبة مميته من بني جلدته، فقد ضاع أمله فيها وتبخر وتلاشى، نحو قوله: "إنما العلم لهم والسلاح لهم والسيادة لهم والمجد لهم، والكلمة العليا في المحافل الدولية لهم فلا تزالون تكابدون حملها والإصعاد والهبوط بها ما دمت أحياء، فإن متم فأبناؤكم يورثون أو يورثون بحكم حلول القضاء ذلك البلاء...فدعوا أنتم المكارم والمآثر إذن لا ترحلوا لبغيتها واقعدوا ثم اقعدوا فقد شلتم شلا..."²².

والتنضيد اللساني أفسح المجال للسرد الأصلي على لسان شخصية يعقوب الباريسي بكل أبعادها، بعدها الاجتماعي للمحامي المنصف للآخر، وبعدها الفكري في حضور واع بالمنجز الغربي، وسلبية الأنا المتتهقرة. والصوت الثاني مثله الفنية على تنوع انتماءاتهم الاجتماعية والثقافية، فهذا المهرج الطريف صاحب التخصص الأدبي، وهذا جلوس صاحب ملكة الشعر، وهذا حماد وغيرهم من الذين نحوا منحى المناظرة الأدبية عهد العرب قديما بالعصر العباسي خاصة، وأسلوبهم التعبيري المتكرر في أكثر من محطة من محطات الرواية يوقفنا على حرصهم الشديد على اللغة العربية كونها تمثل ثروة البلاد وعمقها الحضاري، راحوا يحاكون الآخر في جرميتها بحقها نحو قول أحدهم: "لقد عمد الكيان الغريب الدار إلى لغة آبائي وأجدادي من انتشارها بين المواطنين، وقام في وجه تطورها بإغلاق المدارس إما بقتل معلمها وإما بسجنهم واضطهادهم اضطهادا شنيعا، بل حاول طمسها من كل أصقاع المحروسة المحمية البيضاء، فاستحالت من لغة العلوم والطب والرياضيات إلى مجرد لغة ركيكة لكتابة الحروز..."²³.

ويوقفنا التنضيد اللغوي عند صراع محتدم بين الفتنية والنوع الثالث الذي جسده الشيخ الضير، هذا الشيخ حمل على عاتقه التاريخ فساقه بين عقدة الانهزام وطي النسيان؛ حيث بدا الحديث في قالب محاكمة من قبل الفتنية في بدايته، حتى قاطع أحدهم قائلا: "تيدك يا هذا ولا تعد طورك في تحمالك على التاريخ، وارفق به رفقا أم تريد أن تقيم للتاريخ محاكمة، وأنا ما جئت إلا من أجل أن أمثل هذا التاريخ أمامكم لعل وعسى..."²⁴

وظل ديدن المحاكمة بين هذه الأصوات يلهم ألسنتهم فيرسلون تعبيرات لسانية يكشف طبقاتها التنضيد اللغوي، ويفك شفراتها، ولعل الناظر إليها يستظهر التعددية الحزبية التي أصبحت تحكم سياسة البلاد العربية عامة، وهذه هي الأيديولوجية المقصودة.

وأما عن الصوت الرابع فيمكن القول إنه يمثل يقظة التاريخ المجيد وثباته بمقوماته، هذا الصوت الذي أفسح المجال له مجال السرد السليل فراح يعبر بحوارات تمجد بطولات الآباء والأجداد في صورة كان ينقصها تاريخ يقظ غير غافل، غير متناس صوت مثله الأم زينب التي سعدت بوجود الفتنية يجتمعون عند الشجرة وهم يحيون التقليد التاريخي الجليل على غرار ثوار الثورة المجيدة، فراحت تبث فيهم الحماس وروح التضحية من أجل الوطن، حيث قرروا حينها تغيير التاريخ وإعلان نار الثورة على الآخر الظالم، والسعي قدما نحو القيم المثلى والحفاظ على الهوية الجزائرية، حتى غدوا قائلين بعد قول الأم زينب: "لعلكم أنتم أن تقيدا مما أنتم سامعون مني أيضا فقد يوجد في النهر ما لا يوجد في البحر"²⁵، فراحوا يرددون هاتين: "دعونا من شيوينا ونحن نجلهم إجلالا، دعونا من آبائنا هؤلاء المتخوفين المترددين، إنا نحن شباب المحروسة الحبيبة المحمية البيضاء..."²⁶

والحقيقة أن التنضيد اللغوي وقف عند تعددية صوتية أفصحت عن سبيل حوارى للمستوى الثقافي لها، والتي تصب في أرومة واحدة وهي التعلق بالهوية والثقافة الجزائرية خاصة والعربية عامة، أصوات أبانت عن فصاحة لسانها العربي رغم تعلمهم لغة الآخر، هي ملفوظات لغوية لسانية حوتها اللسانيات الاجتماعية بخاصيتها وعلاقتها بالرواية البوليفونية، ولا تقف مظاهرها عند هذا المستوى فقط بل نجد التهجين والأسلبة وغيرها، والتي تركت كشفها في وقت لاحق، غير أننا سنثمن الدراسة باستجلاء عنصر التهجين بوصفه مظهرا يحصل حين يلتقي وعيان منفصلان عن طريق مزج أسلوبين تعبريين اجتماعيين داخل ساحة ملفوظ واحد، هذا المزج الذي قد يكون بوعي وقصد أو بغير ذلك، وسنمثل لذلك من رواية حطب سرافو لسعيد خطيبي.

ب. التهجين في رواية حطب سرايفو لسعيد خطيبي:

تكشف رواية حطب سرايفو لسعيد خطيبي عن أزميتين الأولى بالجزائر والثانية بسرايفو حدثتا في نفس الحقبة الزمنية، والمتعن لنص الرواية بوليفونيا يقف عند هذه المحطات التي يستجلي التهجين بأنواعه هذا الوعي الأيديولوجي لتعددية أصواته التي تتعالق لغاتها معبرة عن رؤى خفية. وإذا أبنا عن التهجين الذي هو عبارة عن " تعالق لغتين غير متكافئتين إحداها مشخصة والأخرى مشخصة تقدمان عبر وعي فردي منسكن بحمولة رؤيوية للعالم، ومعناه أن البناء الهجين يتأسس عن ثنائية الفردي/الجماعي"²⁷.

في الرواية فإننا ستمثل لذلك فيما دل عليه بخصوص المفارقات الكثيرة الحاصلة على المستوى الثقافي بين الشخصيات الرئيسية المتحدثة، نحو ما نجد عليه من تصريحات، ففي فصل الرمان من الرواية يقول سليم: "ستغلق المقهى ونذهب إلى بن عكنون عند صديق لنا، بن عكنون حي تسكنه شخصيات سياسية مرموقة وتوجد به مقرات مؤسسات رسمية، من الطبيعي أن لا تقطع عنه الكهرباء ولا يسا في هذا اليوم الاستثنائي، أما الحي الذي أسكن فيه فهو حي شعبي لا يقيم فيه سوى الفقراء البسطاء والمغلوبين على أمرهم، الذين لا يفكرون سوى في الآخرة بعدما خاتمتهم مباحج الدنيا"²⁸.

والقارئ لهذا الملفوظ يقف عند قصيدة التهجين القائمة على لسان سليم الذي يسرد لنا رؤية طبقتين اجتماعيتين مختلفتين الأولى الطبقة السياسية المرموقة، والثانية الطبقة الفقيرة المحرومة من أبسط وسائل العيش والرفاهية، والتهجين يستجلي حوارا خطابيا جاء في صورة مفارقة بين وعين متباينين.

ولا يختلف التهجين عنه فيما شير إليه سابقا؛ إذ يتجاوز به الروائي على لسان "إيفانا" السرفية التي تحيلنا بملفوظها إلى تلك المفارقات بينها وبين أمها في التفكير والمعتقد اتجاه فكرة الزواج والتأسيس للمستقبل في قالب حوارى يستحضر الصوت الآخر، نحو قولها: "كلمة محترم قصدت منها منصب شغل يوفر لي مالا يسمح لي بالتفكير في الزواج، بناء أسرة وإنجاب أطفال ورعايتهم الشيء الوحيد الذي يشغل ذهن والدتي هو أن تراني يوما ما أما، فقدت الأمل في أنتشي بعدما اختلّ عقلها وصرت الوحيدة المكلفة بتحقيقي رغبتها، أنا مسكونة بالمرسح وقد أنجب منه أطفالا لكن أُمي لا تفهم خيارى، ما لفائدة من بناء أسرة اليوم لأهجرها مستقبلا؟ لا فائدة من إنجاب أطفال في هذه المدينة المرتعشة، لا أريد أن أصير مثل حيوانات تتكاثر ليتكاثر ضجيجها لا أكثر..."²⁹.

والتحليل البوليفوني اللساني يستوقفنا على رؤية مفادها صوت يحاور صوتا آخر يدي قلقه وخوفه من المستقبل بناء على تجارب سابقة في مجتمع مرتعش تهزه الأزمات من شتى النواحي، مجتمع يفتقد إلى الاستقرار والأمن.

خاتمة:

لقد كان ما تم تقديمه في ثنايا هذه الدراسة رحلة قصيرة في ارتباط معرفي علمي شهده فكر بيني تم خلاله الكشف عن مواطن الالتقاء بين اللسانيات وعلم اللغة الاجتماعي متخذين الرواية البوليفونية حقلا لتجسيد ذلك، وقد ثبت :

-تحقيق التعاون البيني بين اللسانيات وعلم اللغة الاجتماعي بأن عبرت تقنيات وأساليب كل منها قناة للدراسة والبحث متخذة اللغة كظاهرة اجتماعية حلقة وصل بينها لاستجلاء ذلك.

-حقق الجانب التطبيقي للرواية البوليفونية الاكتفاء الذاتي للسانيات وهي تجتمع مع علم اللغة الاجتماعي في استنطاق آلياتها على مستوى الشكل والمضمون نسقيا وصولا إلى السياق الاجتماعي.

هوامش:

- ¹ علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت.ص 41
- ² اللسانة الاجتماعية، جوليت غارمادي، دار الطليعة، بيروت، تعريب: خليل أحمد خليل، ط1، 1990.ص 22.
- ³ علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، ص41.
- ⁴ دراسات في اللسانيات-ثمار التجربة-هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1. 2011.ص 36.
- ⁵ اللغة وعلوم المجتمع، عبده الراحي، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط1، 2012.ص 9
- ⁶ دروس في اللسانيات العامة، دي سوسير، تر: يوسف غازي، دار نعان للثقافة، بيروت.ص 16
- ⁷ البيان والتبيين، الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، دت، ج1. 1995.، ص144.
- ⁸ اللسانيات الاجتماعية عند العرب، هادي نهر، دار اليازوري العلمية.ص 376.
- ⁹ من النظرية اللسانية إلى تنظير الواقع، ليلي المسعودي، من بحوث الملتقى الدولي في اللسانيات. 2003.ص5-6.
- ¹⁰ محاضرات اللسانيات الاجتماعية.. لطفي بوقرة، معهد الأدب العربي والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، 2002-2003، ص5.
- ¹¹ قضايا ألسنية تطبيقية-دراسة لغوية اجتماعية نفسية مقارنة تراثية، ميشال زكريا، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1993.ص 9-10.
- ¹² شعرية دوستوفسكي، ميخائيل باختين، تر: جميل ناصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، المغرب، دط، 1989.ص 59.
- ¹³ النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، حميد لمحيدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص89.
- ¹⁴ الرواية البوليفونية أو الرواية متعددة الأصوات، جميل حمداوي،
- ¹⁵ شعرية دوستوفسكي، ميخائيل باختين، ص 11.

https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/

- ¹⁶ شعرية دوستوفسكي، ميخائيل باختين، ص 126-127.
- ¹⁷ المصدر نفسه والصفحة.
- ¹⁸ النقد الروائي والايديولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، حميد الحميداني، ص 82.
- ¹⁹ شعرية دوستوفسكي، ميخائيل باختين، ص 89.
- ²⁰ الرواية البوليفونية أو الرواية متعددة الأصوات، جميل حمداوي، ص 103-104.
- ²¹ الخلاص-رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة، عبد المالك مرتاض دار هومة - الجزائر، دط، 1996. ص 20.
- ²² المصدر نفسه والصفحة.
- ²³ المصدر نفسه، ص 127.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 137.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص 203.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 306.
- ²⁷ الخطاب الروائي، باختين، تر: محمد براءة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1987، ص 108.
- ²⁸ حطب سرايفو، سعيد خطيبي، منشورات ضفاف، بيروت، ط 2، 2019. ص 48.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 44-45.

قائمة المصادر والمراجع:

1. البيان والتبيين، الجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، دت، ج 1، 1995.
2. حطب سرايفو، سعيد خطيبي، منشورات ضفاف، بيروت، ط 2، 2019.
3. الخطاب الروائي، باختين، تر: محمد براءة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1987.
4. الخلاص-رواية في عشق الوطن وتجليات اللغة، عبد المالك مرتاض دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، دط، 1996.
5. دراسات في اللسانيات ثمار التجربة-هادي نهر، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 2011.
6. دروس في اللسانيات العامة، دي سوسير، تر: يوسف غازي، دار نعمان للثقافة، بيروت.
7. الرواية البوليفونية أو الرواية متعددة الأصوات، جميل حمداوي، https://www.alukah.net/publications_competitions/0/39038/
8. شعرية دوستوفسكي، ميخائيل باختين، تر: جميل ناصيف التكريتي، دار توبقال للنشر، المغرب، دط، 1989.
9. علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت.
10. قضايا ألسنية تطبيقية-دراسة لغوية اجتماعية نفسية مقارنة تراثية، ميشال زكريا، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط 1، 1993.
11. اللسانة الاجتماعية، جوليت غارمادي، دار الطليعة، بيروت، تعريب: خليل أحمد خليل، ط 1، 1990.
12. اللسانيات الاجتماعية عند العرب، هادي نهر، دار اليازوري العلمية.
13. اللغة وعلوم المجتمع، عبده الراجحي، دار الصحابة للتراث بطنطا، ط 1، 2012.

- 14.محاضرات اللسانيات الاجتماعية... لطفي بوقربة، معهد الأدب العربي والعلوم الإنسانية، جامعة بشار، 2002-2003.
- 15.معجم مصطلحات علم اللغة الحديث، محمد حسن باكلا وآخرين، مكتبة لبنان، لبنان، ط1، 1983.
- 16.من النظرية اللسانية إلى تنظير الواقع، ليلى المسعودي، من بحوث الملتقى الدولي في اللسانيات. 2003.
- 17.النظرية الشكلانية في الأدب والفن، جميل حمداوي، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، ط1، 2020.
- 18.ميخائيل باختين المبدأ الحوار، ترفيتان تودوروف، تر: فكري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1996.
- 19.النقد الروائي والايولوجيا من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النص الروائي، حميد لميداني، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990.